أطفالنا

كيف نحسن تربيتهم

إعداد

أ.د/ عبد الفتاح إبراهيم تركى

أستاذ أصول التربية المتفرغ

كلية التربية – جامعة طنطا

مجلة رعاية وتنمية الطفولة - جامعة المنصورة

العدد (٢) – المجلد (١) – ٢٠٠٥م

أطفالنا

كيف نحسن تربيتهم

تتوجه هذه الورقة إلى الكبار، كل الكبار الذين يسهمون بأقدار متباينة في تنشئة أطفالنا، وشاغلها الأساس أن تبلغ بهم حد القناعة بأن يستبدلوا بأفكارهم ورؤاهم التي يصدرون عنها في تعاملهم مع الأطفال، أفكارا ورؤى جديدة. أمهات وآباء ومعلمون ورجال دين ورجال إعلام... الخ مدعوون إلى مراجعة أرصدتهم الفكرية المتعلقة بتربية الصغار، وتبنى ذهنية جديدة تسمح لهم باحترام طبائع الصغار الذين نتلقاهم من بين يد الخالق أمانة لابد أن نصونها ونحسن صنعتها. وتنتظم الورقة ثلاثة لحظات تتابع لتبلغ بنا هذا الشاغل الكبير:

١- وتـــتركز اللحظة الأولى على موجبات التخلي عن الذهنية الحالية التي تحكم ممارستنا وتصرفاتنا مع أطفالنا

٢- بينما تتركز اللحظة الثانية على موجبات التحلي بذهنية جديدة.

٣- أمـــا اللحظة الثالثة فتنشغل بتجلية منهج التربية الذي يلزم عن هذه الذهنية الجديدة.

ولسنا بحاجة إلى التأكيد إلى أن ما تضمه هذه الورقة من أفكار، يظل قابلا للنقد والمراجعة، ولا نريد له إلا أن يكون دعوة لحوار تشارك فيه الأطراف المعنية بقضية تربية أطفالنا، أخطر قضايانا القومية والإنسانية. وأخطر ما يتعرض له فكر أن يقدم للناس على أنه نهائي ومطلق الصدق؛ كل فكر جدير بهذا الاسم ينبغي أن يظل قابلا للأخذ والرد والمراجعة بل والإقصاء تماما.

١- التخلي عن ذهنية الحتمية البيولوجية:

ويجدر بنا في البداية أن نحدد مفهومنا عن ما نعنيه بالذهنية. ونقصد بهذا المصطلح أن نسمي تلك البنية العقلية التي تتخذ وجودها داخل عقولنا وتضم الأفكار

المتعلقة عليه بمجال بعينه. وفي حالتنا التي نتحدث عنها هنا فإن هذه الذهنية تضم مجموعة الأفكار التي تلون نظرتنا إلى الطفل وتحدد بالتالي فهمنا لطبيعته وما ينبغي له من اهتمام نوفره له.

ومراجعة يسيرة للذهنية التي نصدر عنها في تعاملنا مع أطفالنا، تضعنا أمام حقيقة لا مراء فيها وهي: الأفكار التي تشكل ذهنيتنا الحاكمة لعلاقتنا بأطفالنا، تنتمي في مجملها لما نطلق عليه الحتمية البيولوجية. ونظرية الحتمية هذه تعني ببساطة إننا ننظر إلى أطفالنا على أنهم يأتون إلى الحياة وهم يحملون كل الخصائص التي تميز شخصياتهم عقلا ونفسا وخلقا وبدنا.

ولكي نستحضر إلى دائرة الضوء قسمات هذه الذهنية التي تمثل قاسما مشتركا نجده لدى المثقفين وكذلك الناس العاديين، نحاول فيما يلي من تحليل رصد أهم الأفكار التي نعرفها جميعا ولكن دون أن ندري شيئا ذا بال عن أصلها والكيفية التي وصلت من خلالها إلينا.

١-١ الذكاء وراثة:

وأول الأفكار المكونة للذهنية الحالية التي ندعو إلى التخلي عنها، هي تلك الفكرة القديمة التي روج لها فلاسفة الأبراج العاجية منذ قرون بعيدة قبل الميلاد وهي إننا نأتي إلى الحياة ونحن نحمل معنا عقولنا التي تضعنا إما بين الأذكياء وإما بين الأغبياء وإما في المنزلة بين هذين الطرفين. وهذه الفكرة التي تروج إلي يومنا في الكتابات التربوية وتتناقلها الألسن وتستقر عليها القناعات، توجد أيضا بين البسطاء من الناس؛ فأنت تسمع العامة يؤكدون قناعتهم بصدق هذه الفكرة حينما يقولون: ابن الوز عوام.

ولسنا هنا في مقام يسمح لنا بالاستطراد في تأصيل هذه الفكرة وتعرية حقيقتها وإبراز فسادها وافتقارها لأي سند أو دليل علمي، ويكفي في هذا الصدد القول بأن:

- ❖ البذور الأولى لهذه الفكرة توجد في ما روج له أفلاطون من إن الإنسان يأتي إلى الحياة وهو يحمل في عقله كل المعارف وما علينا إلا أن نساعده في الكشف عن مكنون عقله.
- ❖ وجدت الطبقات الحاكمة في أفكار هذا الفيلسوف أداة مهمة لإطفاء المشروعية على تسيدها وسيطرتها؛ فأبناؤها أذكياء بالمولد.
- ❖ روج الباحثون العاملون في خدمة الطبقات المهيمنة لفكرة قياس قوة العقل أو (الذكاء) وابتكروا لذلك ما يعرف باسم اختبار الذكاء
- ❖ الأبحاث التي أثبتت زيف الادعاءات القائلة بوراثية الذكاء وتلك القائلة بإمكانية قياسه، تعرف وجودا هامشيا وتبذل جهود للتشويش عليها.

١ – ٢ والطبع أيضا:

واتساقا مع الفكرة السابقة، تروج بيننا أيضا قناعة بأننا نولد وقد تحددت طباعنا التي نتميز بها في حياتنا. ويترتب على قبول هذا الادعاء أننا لا نستطيع فكاكا من طبائعنا التي تحددت قبل أن نرى النور؛ فالطبع يغلب التطبع. مقولة على جانب عظيم من الخطورة. فالتربية وهي المنوط بها القيام بعملية التطبيع لا حول لها ولا قوة حيث لا تستطيع أن تغير شيئا من طبعنا الذي ورثناه وحملناه معنا بالمولد.

وكلنا يألف تلك الأقاويل التي لا حصر لها والتي تكشف عن تعمق هذه الفكرة في وجداناتنا؛ فأنت تسمع هذا الأب يؤكد أن ابنه سريع الانفعال من يومه، وأخر يؤكد أن ابنه متبلد الحس، بينما ترى ثالث في يأس من محاولة استرجاع ابنه عن طريق الانحراف. ولعل فكرتنا تتضح أكثر حينما نتجه بأنظارنا إلى عامة الناس فنستمع إلى أمثالهم وأقوالهم التي تتجه ذات الوجهة: (غلبت اعلم فيك والطبع فيك غالب، ديل الكلب ما ينفرد ولو علقت فيه قالب) وأيضا (اقلب القدرة على فمها تخرج البنت لامها).

وهنا أيضا نجد الجذور الأولى لفكرة الطبع الموروث عند الفلاسفة القدامى كما نجد محاولة إطفاء العلمية عليها في أعمال العلماويين الذين قسموا الناس بحكم مولدهم إلى أمزجة يتسم كل مزاج بخصائص فريدة: فهناك البلغمي والصفراوي والدموي ....الخ. وقريبا منا كان سزاري لمبروزو الذي خرج بنظرية في الإجرام راجت في العالم بل والأغرب إن ما يزال لها بعض المساندين إلى يومنا هذا. نظرية تجعل المجرم مجرما بالطبع أي بالوراثة!!! والكلام هنا لا يحتاج إلى تعليق؛ فمن يقبل ذلك يفتقر للحس السليم.

لعلنا نفهم في ضوء ما تقدم لم أطلقنا على الأفكار السابقة، أفكار حتمية بيولوجية؟ والأمر في غاية البساطة فان من يتمسكون بالأفكار السابقة، يسلمون ضمنا بأن الإنسان يأتي إلى الحياة محدد السمات والخصائص التي تجعل منه فردا متميزا عن الآخرين. وبتعديل آخر فإننا نأتي إلى الحياة بطبيعة موروثة لا نستطيع إلا أن نكونها مهما بذلنا من جهد ومن ثم يكون محتوما علينا أن نعيش هذه الطبيعة المعطاة لنا بالجينات.

١-٣ من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل:

وفي ضوء ما تقدم نستطيع أن نتعرف على دور التربية في تنشئة الإنسان ذي الطبيعة الجامدة؛ فكل ما تفعله التربية التي تنطلق من ذهنية الحتمية البيولوجية هي أن تحول وجود هذه الطبيعة من وجود بالقوة أي بالخلقة والمولد إلى وجود بالفعل. فالتربية وفق هذا المنظور في مساعدة الإنسان أن يحقق موروثه وسواء أكان الموروث جيدا أو رديئا، فان التربية لا تملك حياله تعديلا أو تغييرا. دور التربية إذا هو الكشف أو التنقيب عن ما نحمله بداخلنا من قدرات عقلية ومن سمات مزاجية بل وأيضا ومن أخلاق، ونلمس هنا سيطرة الفكرة الافلاطونية القديمة التي تجعل من حياة الإنسان على الأرض مجرد تذكر واستعادة لحياته في عالم المثل الذي عاش فيه قبل أن يولد.

التربية التي تصدر عن ذهنية الحتمية البيولوجية، تربية لا حول لها ولا قوة فهي لا تستطيع أن تغير من ميراثنا شيئا وعلى ذلك فهي غير مسئولة عن ما نحقق من نجاح بنفس القدر الذي تكون فيه غير مسئولة عن الفشل الذي نتردى فيه. وهكذا يضيع أهم دور يمكن أن يكون لتربية جديرة بان تصوغ الإنسان أو تصنعه؛ فالتربية هنا تقنع بان تكون مجرد جهد تنقيبي يفتش عن المكنون بداخلنا الذي لا فكاك منه ومن ثم يغيب أي أمل في أن يفارق الإنسان هذا الحتم البيولوجي الذي يلازمه حتى الموت.

وتجدر الإشارة هنا إلى بعض الجهود التي حاولت أن تخفف من غلواء نظرية الحتم البيولوجي، وهي جهود اجتهدت أن تشرك البيئة في تشكيل الذات الإنسانية، فأعطوا لهذه البيئة التي ننشأ فيها قدرا من التأثير في كياناتنا الموروثة. بل حاول البعض أن يعطي للوراثة نسبة في بناء الإنسان ويعطى أيضا للبيئة نسبة. ودون الدخول في تفاصيل مثل هذه الجهود، فان الأمر يظل كما هو حيث تهيمن الوراثة وتشكل النواة التي يقوم عليها بناء الإنسان، دون أن يكون هناك سند أو دليل على وجود هذه الوراثة.

وربما يكون من المفيد في نهاية هذا المحور أن نحيل القارئ إلى أهم الدراسات التي يمكنها أن تمده بنور مفيد حول ذهنية الحتمية البيولوجية وما تنطوي عليه من أوهام وأساطير ومن انقطاع شبه تام عن حقيقة الطبيعة البشرية التي ما زلنا بعيدين عن سبر أغوارها وتجلية خصائصها وأثارها. فهناك الدراسة الجادة لأحد علماء النفس النقديين (ميشيل تور) الذي استطاع بعد تحليل عميق لأهم اختبارات الذكاء المشهورة في العالم، أن يهدم مفهوم الذكاء ويعريه تماما من أي مصداقية. بل أمكن لهذا العالم في كتابه المعنون "معامل الذكاء" أن يفضح المعالجات الإحصائية الملتوية التي تستخدم لتزييف الحقائق البسيطة لتضفي عليها مسحة علماوية تصيب الإنسان العادي بالخوف وتفرض عليه قبولا مذعنا نظرا لجهله بهذه الحسابات المعقدة التي يتقنها المختصون في علم الإحصاء.

ويفيد القارئ هنا من مراجعة دراستنا بعنوان: (الوجه الأخر للمفاهيم الوافدة) والمنشورة في العدد الأول من مجلة التربية المعاصرة التي تصدرها رابطة التربية الحديثة بالقاهرة. ففي هذه الدراسة حاولنا إلقاء الضوء على الوجه الأخر لمفهوم الذكاء الذي استقبلناه غريبا على أرضنا، فقبلناه وبجلناه حتى صرنا أكثر احتراما وتمسكا ممن ابتكروه في الأصل لنصير ملكيين أكثر من الملك.

وفي هذا المجال أيضا يفيد القاري من الدراسة الرصينة لعالم البيولوجي الأمريكي "ستيفن روز" والذي نشر كتابه: "NOT IN OUR GENES " والذي ترجم إلي العربية ونشر في احد أعداد عالم المعرفة الكويتية تحت عنوان " علم الأحياء والايدولوجيا والطبيعة الإنسانية" ..... ولقد تمكن في هذا الكتاب أن يوفر الأدلة التي تنفي أية حتمية بيولوجية تتحكم في ما نلاحظه من فروق بين السلالات والشعوب، وهي نتيجة على جانب كبير من الخطورة والأهمية لقضية بناء الإنسان.

كما يمكن للقارئ أن يرجع أيضا إلى كتابنا "فلسفة التربية مؤتلف علمي نقدي" والذي قدمنا فيه نقدا لنظرية الحتم البيولوجي ثم استشرافا لرؤية جديدة تسمح بممارسة تربية تتحمل المسئولية كاملة في صناعة البشر.

٢ – التحلي بذهنية علمية نقدية:

وبعد أن عرضنا للذهنية المهيمنة والتي ينبغي التخلي عنها حيث يمثل استمرارها خضوعا للأوهام والأساطير التي وصلت إلينا عبر القرون وقبلناها دون أن نعيد فيها النظر ونخضعها للتحليل والغربلة والنقد الأمين، نحاول في هذه اللحظة من البحث أن نلقي الضوء على القسمات الرئيسة للذهنية الجديدة التي ندعو إليها لتكون أساسا لحركتنا ومسيرتنا وتعاملنا مع أطفالنا. ولسنا بحاجة إلى إعادة القول في أهمية الأفكار التي تحكم ممارستنا، فهذه الممارسات تتشكل مضمونا وبنى وفق ما يحتشد في أذهاننا من أفكار ورؤى.

٢-١ "... ولتصنع على عيني"

وأول المفاهيم الخصبة التي نصدر بها مكونات الذهنية الجديدة هو هذا المفهوم الذي يضمه القران الكريم ألا وهو أن الإنسان تصنعه التربية. فحينما أراد الله سبحانه لموسى أن ينشأ في بيت عدوه اللدود فرعون قال :"وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني". آية ٣٩س طـــــــه هذه الكلمة العميقة تعبر بصدق ودقة متناهيين عن حقيقة التربية التي تصنع الإنسان صناعة أي تصوغه صياغة وتكسبه ما يكون به إنسانا: طريقته في التفكير، توازنه النفسي، اتساقه الروحي، التزامه الخلقي، باختصار تصنع التربية الإنسان وتحدد قسمات شخصيته التي يتفرد بها.

وقبولنا لهذا الفهم الدقيق لدور التربية هو بمثابة تصحيح لما اشرنا إليه أنفا من انحراف شاب دور التربية وإمكانياتها. فحينما نقر بمسئولية التربية الكاملة في صناعة الإنسان وفق المعنى الدقيق الذي المحنا إليه، فإننا نفتح باب الأمل عريضا أمام البشر كي يحققوا من خلال التربية ذواتا قادرة على الحياة الحرة الكريمة ليكونوا جديرين بإسناد الخلافة إليهم على الأرض. حينما نعي أننا نصنع الإنسان بالتربية أي نكسبه كل ما يجعل منه إنسانا؛ لغة وفكرا وقيما... فإننا نلفظ كل الأحكام القبلية وكل الأوهام التي ظلت وما تزال توجه جهودنا في بناء الإنسان، لننطلق من القناعة بأننا نستطيع أن نبني أطفالنا وفق ما نريد ووفق ما تتطلع إليه شعوبنا.

وانطلاقنا من هذا المفهوم الخصب، يحصننا ضد الممارسات العنصرية التي تصنف الناس قبليا وفق أوهام الوراثة البيولوجية، ويجعلنا ننطلق من التسليم بأن الأطفال سواسية ولديهم ذات الاستعدادات للتعلم والنمو، لا فرق بين سلالة وأخرى ولا بين ذكر وأنثى ولا بين ابيض واسود.

٢-٢ القابلية للتربي والتعلم:

وينسجم مع قبولنا مسئولية التربية الكاملة في صناعة الإنسان، أخذنا وإقرارنا بان كل الأطفال مستعدون- طالما صحت حواسهم- لان يتلقوا فعل التربية وان يتشكلوا وفق غاياتها وممارستها. ومعنى ذلك بتعبير أخر أن قابلية أطفالنا للتعلم

والتربي واحدة لا يحد منها شيء سوى أن تتباين الظروف التي ينشأون فيها وما يوجد فيه من عناية وإمكانات مادية وبشرية.

ولعلنا ندرك هنا الفارق الجوهري لتسليمنا بقابلية الأطفال، كل الأطفال للتربية والتعليم، والفكرة القديمة التي عريناها فيما سلف من تحليل والتي كانت تسلم بتفاوت الأطفال من حيث ميراثهم البيولوجي. إننا هنا بصدد مفهوم يتجه بنا نحو احترام الخلقة الكريمة التي يأتي عليها أطفالنا، خلقة يتوفر فيها المساواة بين كل الأطفال الذين ينبغي لنا أن نصنعهم لنحقق فيهم مشيئة خالقهم.

٢-٣ بناء متكامل

وما دمنا نتحمل مسئولية صناعة الأطفال، فإننا مطالبون بان لا نهمل العناية بكل مكونات الذات الإنسانية التي ينبغي أن تتكامل فيما بينها ويتسق محتواها لتوفر للإنسان سلوكا سويا وفعالا. ويرتبط بهذا الشاغل لبناء ذاتا إنسانية تتكامل مكوناتها، ضرورة أن تتجه التربية بفعلها المشكل لهذه المكونات على أساس من التوازن الرشيد فيما يبذل من جهد تجاه كل مكون على حدة؛ فيعطى كل مكون بقدر. وحتى تتضح فكرتنا عن البناء المتكامل للإنسان، ندير تحليلنا بشيء من التفصيل حول مكونات الذات الإنسانية الرئيسة:

- أ-الروح:

وأول المكونات المحددة لذاتية الإنسان هي الروح التي نلمس وجودها دون أن ندركه بحواسنا. والتربية التي نسعى تحديد ملامحها وفق الذهنية الجديدة، مسئولة عن تنمية الروح وإذكاء وجودها فينا، وسبيلها إلى ذلك أن تأخذ الأطفال من أنفسهم لساعات بعينها، يتأملون فيها ويسبحون بعيدا عن المشاهد والمحسوس لتزكو هذه القوة العظيمة فيهم، قوة الروح التي تجعلنا نكبر على الدنيا بأسرها، وتجعلنا أقوى من جلادينا بل وتجعلنا نحس النعيم ورحابة الكون ونحن بين جدران زنزانة كئيبة.

□ ب- العقل:

وهذا المكون من مكونات الهوية الإنسانية، يحتاج منا إلى روية وفهم عميق حيث يتسم الفهم الحالي لهذا المكون بكثير من التشويه والخلط والأوهام. فالطفل يأتي إلى الحياة ولا عقل له وان كان في رأسه مخ يقوم بوظائف محددة لتسهيل مختلف العمليات الفسيولوجية. ويبدأ العقل في التشكل حينما يبدأ الطفل في التعامل مع الخبرات المختلفة؛ فالخبرة التي يمر بها الطفل تشكل له مسارا ثم يجتازه الطفل راجعا من الخبرة إلى ما كان عليه، ثم يسلك ذات المسار إذا ما صادف الخبرة ذاتها. وهكذا يمارس الطفل بناء الواقع من جديد فيتشكل عقله رويدا رويدا وتتحدد بنيته شيئا فشيئا. وهذه البنية هي بنية مرنة دائمة التحول طالما اجتهد الطفل وفتحت أمامه أبواب التعلم والتربي بلا قيود.

فالعقل بنية مكتسبة بالتربية، تيسر وظائف فكرية تتفاوت قوة وضعفا وفق نوع ومضمون التربية التي يتعرض لها الطفل. فالذاكرة القريبة والبعيدة وظيفة من وظائف بنية العقل، وظيفة تقوى وتضعف ممارستها وفق الاحتياج إليها. وجدير بالذكر أن تعليمنا الحالي لا يفعل شيئا أكثر من تنمية الذاكرة الحافظة عند أطفالنا. ولا نبالغ إذا ما قلنا أن تنمية الذاكرة الحافظة هي الشاغل الأول والأخير لجهود التعليم في نظامنا التربوي.

ولبينة العقل وظائف أخرى كثيرة قد نجدها واضحة عند البعض وقد نجدها مهملة أو غائبة عند البعض الأخر. والأمر كله يتعلق بنوع العناية التربوية التي تبذل من اجل صياغة بنية العقل. فهناك التحليل وهناك الاستنتاج وهناك التخيل وهناك إدراك العلاقات والتعميم وهناك الإبداع إلى غير ذلك من الوظائف التي نقرأ عنها أو نحاول أن ننميها في أنفسنا.

وهكذا تكون مسئولية التربية وفق الذهنية الجديدة كاملة في صياغة عقول أطفالنا وتحديد بنياتها وما يرتبط بها من الوظائف أي العمليات العقلية التي يؤدونها.

ج- النفس

وهذا المكون كسابقه تماما يتشكل بالتربية وعبر الخبرات التي يمر بها الطفل فتثير انفعالاته المختلفة فيثبت منها ما يثبت وربما اتخذ طابع السمة الدائمة وربما مر مرور الكرام. ولعلنا نعلم جميعا أن الخوف وهو سمة من سمات البشر النفسية، مكتسب أساسا بالتربية. ولعل في أبحاث (واطسن) ما يدعم فهمنا لما نذهب إليه في هذا المقام. فلقد اثبت أن للخوف أساسا عصبيا يتمثل في استثارة الجهاز العصبي للطفل ومن ثم يأتي رد الفعل في شكل انزعاج أو خوف. والشيئان الوحيدان اللذان يثيرا جهاز الطفل العصبي وهو ما يزال رضيعا: الصوت الشديد المفاجئ وفقدان السند والسقوط.

ما عدا هذين الشيئين وهما مثيران عصبيان، تتكون كل المخاوف بالتربية أي عبر الخبرات المربية وغير المربية التي يمر بها أطفالنا. ويلعب الارتباط الشرطي دورا مهما في انتقال المخاوف من شيء إلى أخر؛ فالطفل الصغير لا يخاف الثعبان وربما مد يده ليمسك به بل وربما حاول أن يضعه في فمه، كيف يخاف الطفل بعد ذلك من الثعبان ثم من الأشياء ناعمة الملمس لاحقا؟

صحتنا النفسية، إذا تعتمد على نوع التربية التي نتعرض لها وطبيعة الخبرات والمواقف التي قدر لنا أن نعيشها ونمر بها.

د- الخلق

وهذا المكون الرابع من مكونات الذات الإنسانية يتكون لدينا حينما نستبطن السلوكيات التي نأتيها مقتدين بالبالغين الذين يخالطوننا كأطفال. وحينما تتدعم هذه السلوكيات لدينا، تتحول شيئا فشيئا إلى سجايا أو خصال أو لنقل عادات أخلاقية وتتحول القيم التي يستند عليها سلوكنا بعد ذلك إلى نوع من الضوابط الداخلية التي تضئ لنا الضوء الأخضر فنمضى إلى وجهتنا التي تعودناها أو الضوء الأحمر فنتوقف عن المضي فيما هو متاح أمامنا من طرق.

يتشكل الخلق هكذا بالتربية ويضم القيم التي تشربناها عبر السلوك الذي تعودنا عليه ومارسناه. وهذا المكون من أخطر مكونات الذات الإنسانية حيث يتناغم مع ديناميكية المكونات الأخرى، حينما يقدم للسلوك الذي نأتيه الزخم والقوة الدافعة التي تجعلنا نأتي العمل على قناعة ورضا. بل وفي مواقف كثيرة يكون لهذا المقوم الغلبة حتى على العقل ذاته وهو الذي يقوم مسيرة السلوك في كل المجالات.

☐ هـ- البدن

وهذا المكون الأيسر إدراكا وتجسدا، يتسم بخاصية ارتباطه بشكل ملموس بالوراثة البيولوجية. وهذه الخاصية نلمسها حينما نشاهد امتلاك الطفل العديد من الخصائص الجسمية التي نجدها في الأبوين: لون البشرة، طول القامة، ملامح الوجه، ....الخ. بل يمتد فعل الوراثة هنا إلى انتقال الكثير من الأمراض العضوية من الأبوين إلى الأطفال. ومع ذلك فان للتربية وفق الذهنية الجديدة مسئولية كبيرة في صناعة هذا البدن أيضا. فبرغم خضوع البدن لعامل الوراثة البيولوجي، تنفتح أمام التربية ثلاث ممكنات:

- فالتربية ممكن أن تهمل العناية ببدن الطفل وتلحق به الضرر وربما تدهور موروثه البيولوجي نتيجة لذلك.
- والتربية يمكنها أيضا أن تعمل على الحفاظ على بدن الطفل وإبقاء الخصائص التي يتسم بها على حالها.
- والتربية في إمكانية ثالثة تستطيع أن ترقي بهذا البدن وذلك حينما تسعى إلى تنمية خصائصه الموروثة الجيدة وفي نفس الوقت العمل على مساعدة الطفل في التغلب على السيئ منها.

مواقف ثلاثة تفصح عن مدى المسئولية تتحملها التربية التي تصدر عن الذهنية الجديدة المتشحة بالأمل والثقة في قابلية الطفل للتربي والترقي والنضج بلا حدود حتى فيما يتعلق بهذا المكون الذي تمثل الوراثة البيولوجية فيه نصيب الأسد.

٢-٤ الطفولة:

ومن المفاهيم الأساسية الداخلة في تكوين الذهنية الجديدة، مفهوم الطفولة التي يرى فيها الكثيرون مرحلة عمرية شبه ثابتة من حيث امتدادها الزمني. وهكذا يغيب على هؤلاء حقيقة بسيطة يعلمنا إياها تاريخ الشعوب والحضارات ألا وهي أن الطفولة مفهوم نسبي يتحدد وفق الثقافة السائدة ووفق التصورات التي يصدر عنها الكبار في تعاملهم مع الصغار.

وحتى تتضح الفكرة التي نود تطويرها في هذا المقام، نتخذ من مجتمعنا المصري مرجعية تمدنا بنور هاد ومفيد لتجلية هذا المفهوم. فمرحلة الطفولة في القرية المصرية غيرها في المدينة؛ فالطفل في القرية لا يذهب عمره ابعد من ستة وسبعة أعوام بينما الطفل في المدينة قد تمتد مرحلة طفولته إلى ما بعد الثانية عشر. ويفيد القارئ من دراستنا التي شاركنا بها في العام الماضي٢٠٠٤ في مؤتمر بكلية التربية جامعة المنصورة بعنوان: (أطفالنا بين الحتمية البيولوجية والحتمية الثقافية). حيث تقدم هذه الدراسة الأدلة التي نخلص منها إلى الإقرار بنسبية مفهوم الطفولة.

وقبولنا لهذا الفهم، يحصننا ضد الانصياع السلبي للعادات القناعات بل والأوهام التي تذهب إلى تأكيد عدم ارتباط هذا المفهوم وغيره بقيود الزمان والمكان والنظر إلى الطفولة باعتبارها كينونة جامدة واحدة في كل المجتمعات والعصور. قبولنا لهذا الفهم الجديد ييسر لنا مرونة وحرية في اختيار نوع التربية والبرامج والأساليب التي نوفر من خلالها لأطفالنا تربية صحيحة وفعالة.

٢-٥ ولد وبنت:

ومن أخطر المفاهيم التي نتعامل على أساسها مع أطفالنا وتطبع حياتهم المقبلة، مفهوم الذكورة والأنوثة والذي لا يختلف عن المفهوم السابق كثيرا في كونه مفهوما ثقافيا أكثر من كونه مفهوما يعكس فروقا بيولوجية. لا يجادل أحد في حقيقة هذه الفروق البيولوجية التي تجعل للبنت كيانا فسيولوجيا خاصا وبالمثل تجعل للولد كيانا

خاصا به. لكننا حينما نتجاوز هذه الفروق التي لا يترتب عليها إلا خصائص فسيولوجية تميز البنت وخصائص فسيولوجية تميز الولد، حينما نتجاوز هذا المستوى نجد أنفسنا أمام مخلوقين قابلين للتربي والتعلم بنفس الاستعدادات وبنفس القدرات التي تسمح لكليهما بأداء ادوار اجتماعية متماثلة ومتكافئة في طبيعتها ومنفعتها للمجتمع. ليس من طبيعة البنت على سبيل المثال أنها تميل إلى اللعب الهادئ كاللعب بالعرائس وأداء أدوار المرأة التقليدية كالطبخ والطهي وما شابه ذلك. كل ما هناك أننا نضع البنات في مواقف تجمع بينهن والعرائس أو تيسر لهن ممارسة اللعب عبر أداء ادوار المرأة التقليدية.

وبالمثل فليس من طبيعة الولد أن يمارس الألعاب العنيفة كاستخدام البندقية أو ركوب الدراجة أو الجري والضرب إلى غير ذلك من الألعاب التي تتسم بالعنف. كل ما هناك أننا لا نرى أبناءنا إلا على هذه الهيئة في اللعب الذي يضفي عليهم طابع الذكورة.

والحقيقة أن الولد والبنت يمكن أن يمارسا أي نوع من اللعب نوفره لهما ونعودهما عليه. ولسنا في حاجة إلى ذكر الأمثلة التي يمدنا بها علم الانثروبولوجي عن تجمعات بشرية تتخذ فيها المرأة مكان الصدارة والقيادة والسعي على الرزق بينما يقنع الرجال فيها بمسئولية الطبخ والغسل والقيام على شئون الأطفال.

إن وعينا بان الفروق بين الجنسين هي فعل الثقافة وفعل المجتمع، يضعنا أمام مسئولية تربوية غاية في الأهمية والخطورة ألا وهي أن التربية التي نوفرها لأطفالنا لا ينبغي أن تشغل نفسها بتنويع أفعالها وممارساتها لتناسب طبائع الجنسين. فالتربية ممكن آن تكون واحدة بل وينبغي أن تكون كذلك ولا يلغي هذا بالطبع إمكانية أن نخصص أدوارا اجتماعية بعينها للبنت وأخرى للولد وفق الظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي يعرفها مجتمعنا.

٢-٦ الجميع مبدعون:

ومن بين المفاهيم التي نؤكد عليها كمكون من مكونات الذهنية العلمية النقدية، مفهوم الإبداع. واتساقا مع ما سبق طرحه من أفكار، فان أطفالنا يأتون جميعا إلى الحياة متساويين من حيث استعداداتهم للتربي والتعلم، وليس هناك أطفال يتميزون عن غيرهم باستعداداتهم وقدرتهم على الإبداع. ونحن نضيع وقتنا حينما نحاول أن نفرز وننتخب من بين الأطفال أعدادا ضئيلة نخصها بالعناية حيث نتوهم أن هؤلاء وحدهم هم القادرون على الإبداع.

ووفق الفهم الذي يلزم عن قبولنا وتسليمنا بقابلية كل الأطفال للتعلم والتربي، وقبولنا أن العقل بنية تتشكل بالتربية، فإننا لا نستطيع إلا أن نسلم بان الإبداع أي مفارقة المألوف وابتكاره علاقات وكينونات جديدة، هو إمكانية متاحة لكل الأطفال الذين يمكنهم أن يبدعوا بشكل أو بأخر. لابد لنا أن نغير من فهمنا لما نطلق عليه إبداعا، فليس الإبداع أن نصل إلى أشياء خارقة للعادة تصل إلى حد الإعجاز، بدلا من ذلك يمكننا أن نتوقع الإبداع من كل طفل ومن كل إنسان. كل إنسان في مجاله يمكن أن يكون مبدعا حينما يتمرد على الروتين والعادات والأشياء المألوفة ليترك بصمة ما على عمله أو الدور الذي يؤديه في هذا المجال أو ذاك. بهذا المفهوم يمكن أن يكون جامع القمامة مبدعا، كما يكون الباحث العلمي في مجال الفيزياء أو الكيمياء.

والحياة لا ترقي من خلال الأعمال الفردية لقلة من البشر بينما يظل الباقون تابعين يسلكون الدروب المعتادة في حياتهم دون شذوذ عن مساراتها المطروقة. الحياة ترقى حينما يسهم الجميع في إعادة صياغتها كل بقدر، كل في مجاله، ليس هناك عمل أهم من غيره ولا ارقي من سواه، كل الأعمال محترمة ومطلوبة وأساسية في نهضة الأمة. نريد مبدعين على كل مستوى وفي مجال من مجالات الحياة. فقط بهذا المفهوم الواسع، نستطيع أن نبني أجيالا قادرة على الإبداع والخلق والابتكار ومن ثم قادرة على بناء الحضارة.

وأول الدروس المهمة في تنمية بنية العقل لكي يكون الإبداع مكونا أساسا فيها، أن نقلع عن التنميط والتربية الرامية إلى مسخ الفروق بين الأطفال، وبدلا من ذلك نسمح بالتحاور ونسمح بان يكون للسؤال الواحد أكثر من إجابة ونشجع الأطفال أن يطرحوا وجهات نظر مغايرة لتلك التي نعتقد بصحتها ولا نرى سواها. ويتطلب كل ذلك جهدا نمارسه مع أنفسنا أولا كي نتخلص من اثر التربية القديمة التي قولبتنا وصاغت عقولنا على أساس من الذاكرة الحافظة ومعاودة إنتاج أو اجترار ما لقناه من معلومات ومعارف أثناء التعليم.

لابد من توافر مناخ من الثقة المتبادلة بين الأطفال ومن يسهرون على صناعتهم، وهذا يتطلب أن نقلع عن ممارسة السلطة والقمع والتخويف لأطفالنا. وبدلا من كل هذه الممارسات القمعية، نأخذ بأيديهم ونحثهم حثا على التعبير الحر كلاما وسلوكا ودخولا في علاقات مع الأشياء والأفراد. قيم كثيرة لابد أن تستقر في وجداناتنا ليتأسس عليها وينطلق منها سلوكا مغايرا لما نألفه اليوم، سلوكا يسمح بالمشاركة الفاعلة لأطفالنا في صناعة أنفسهم وصياغة عقولهم وقيمهم.

ولعلنا في ضوء كل ما تقدم نلمس خصوصية الذهنية الجديدة التي حاولنا فيما سبق من تحليل أن نحدد بعضا من مقوماتها الفكرية الأساسية. ونعتقد أن بإمكاننا إدراك ما يباعد بينها وبين الذهنية السائدة التي نناضل من اجل تنحيتها والتخلص منها، والتربية التي تتم بفضل الذهنية الجديدة هي تربية تصنع الأجيال وفق طموحاتنا ومن ثم تفتح باب الأمل في بناء أجيال قادرة على بناء المستقبل وإبداع الحضارة.

٣-كيف نحسن صناعة أطفالنا؟

ونحاول في هذا المقام من الورقة أن تأتي اللحظة الثالثة في التسلسل الزمني للورقة منسجمة مع اللحظتين السابقتين. فإذا ما نجحنا في التخلص من ذهنية الحتمية البيولوجية وتسلحنا بالذهنية العلمية النقدية، أمكننا أن نلمس خطورة وأهمية مجموعة الأفكار والمفاهيم التي نسعى إلى تحليلها وإلقاء الضوء عليها هنا.

أفكار ومفاهيم هي بمثابة علامات هادية على الطريق الطويل الذي علينا أن نمشيه ونحن نتمسك بالأمل في صناعة أطفالنا صناعة حسنة. علامات هادية على طريق بناء أجيالنا، لابد لها أن تنمو وتتطور وتثرى كلما زاد رصيدنا المعرفي بطبيعة هذا الخلق الفريد الذي كرمه خالقه واصطفاه ليكون خليفته في الأرض.

٣-١ فحص الراغبين في الزواج:

ولعلنا نستطيع بشيء من الجهد اليسير أن نجنب أطفالنا المآسي التي يتعرضون لها قبل أن يروا النور وتستمر معهم لتجعل حياتهم التالية ضربا من العذاب والألم. ولقد ظهرت فكرة فحص الراغبين في الزواج في الستينات من القرن الماضي وأنشأت مكاتب من اجل هذا، تقدم ما لديها من خدمة في هذا الصدد مجانا فتستقبل المقبلين على إنشاء الأسر باختيارهم لتجري عليهم الفحوص وتجنبهم زواجا تعسا لأسباب يمكن تلافيها بشكل يسير من الرعايا.

ونحسب أن العلم الآن قد وفر لنا معارف لا حصر لها تسمح لنا بان تكون لدينا مثل تلك الأجهزة التي تسهر على العناية بالمقبلين على الزواج حتى يقبلوا على إنشاء بيت الزوجية السعيد وهم على طمأنينة من أن خلفتهم لن تتعرض للتشويه أو المرض أو العجز. ولا يتوقف الأمر عند حد العناية الطبية والفحوص المعملية وإنما لابد أن يتضمن إرشاد الراغبين في الزواج كل المعلومات المتاحة عن الصحة النفسية والعلاقات الجنسية النظيفة المخصبة إلى غير ذلك من المعلومات الثمينة التي يجهلها القسم الكبير من شبابنا وشباتنا. فنحن لا نعرف على أي مستوى من مستويات التعليم، برامج تشغل نفسها بتثقيف شبابنا طبيا ونفسيا وجنسيا. ولعلنا ندرك هنا أهمية أن تتوفر ثقافة متعددة الأغراض يتشكل من خلالها شبابنا قبل أن يدخلوا في علاقة الزوجية المقدسة. ولسنا هنا بصدد تفصيل القول في مضمون الخدمة التي يمكن أن تقدمها أجهزة تنشأ لتحقيق هدف الاطمئنان وإعطاء الضوء الأخضر للمقبلين على بناء الأسر، فهذا أمر يتطلب تضافر جهود مختصين كثر في أكثر من مجال، ولا نود أن نصادر هنا على ما يمكن أن يكون في هذا الصدد من مبادرات.

٣-٢ رعاية الجنيين:

فإذا ما تكونت أسرة على بينة من أمرها أي من التوافق الكامل بين طرفيها الأب والأم، ثم من الله على هذه الأسرة بالخلفة الصالحة، فان متابعة تكون الجنين في رحم أمه ومتابعة نموه وتوفير بيئة صالحة ليتخذ نموه وجهته السليمة، فان جهودنا هنا تكون على جانب كبير من الأهمية لضمان سلامة الأم والجنين معا. ومرة ثانية هنا فان تربيتنا في كل مستوياتها لا تقدم لأمهات المستقبل، البنات اللائي يتعلمن في مراحل التعليم المختلفة، أية ثقافة ذات شان في هذا الصدد.

ماذا لو خلصنا مناهجنا، خاصة في التعليم الأساسي، من الحشو الزائد الذي لا طائل من ورائه، لنضمن هذه المناهج المعلومات المفيدة والعملية التي تخدم البنت حينما تكون حاملا؟ والمعرفة العلمية المتوفرة في أكثر من مجال، هي من الاتساع والثراء اليوم حتى أنها تقدم زادا يضمن للحمل الاستقرار والسلامة إلى أن يصل الجنين إلي بر الأمان.

ونعتقد أيضا أن مراكز تنظيم النسل التي تنتشر في ربوع البلاد يمكن تطويرها لتسهم في هذا الصدد وذلك بتزويد الأمهات بالمعلومات المختلفة اللازمة لضمان سلامة الحمل وسلامة الأم.

٣-٣ استقبال الوليد:

فإذا ما رأى الوليد النور بدأت مرحلة جديدة في صناعته ورعايته، فمنذ اللحظات الأولى التي نستقبل فيها المولود، تبدأ عملية التنشئة والتشكيل له. فكل ما يحيط هذا المولود من مثيرات مادية وبشرية تثير لديه ردود أفعال بيولوجية وفسيولوجية وعضوية فتتشكل رويدا رويدا العديد من خصائصه وعاداته وسلوكياته. وهنا نحتاج إلى ثقافة تربوية متعددة الأبعاد كي نتعامل على بينة مع هذا المخلوق الفريد؛ فاللمسة والهزة تطبع هذا المولود وتترك فيه بصمات لا تمحى.

وحتى نضمن توفر بيئة تربوية مواتية لنمو الصغار، يمكننا أن ننشأ في كل حارة وفي كل شارع ما يمكن تسميته بأمومة الحارة أو الشارع. بيت يختار يمكن أن يلجأ إليه الجيران يلتمسون منه النصح والإرشاد بالتعامل الصحيح مع أطفالهم. ويمكن لهذه الدور أن تتلقى المعونة المادية والدعم العلمي من كل الجهات المنشغلة بصناعة أطفالنا. بل يمكن أن تتطور لتستقبل الأطفال المحتاجين ليمكثوا فيها شطرا من الوقت في اليوم تماما كما تفعل الروضات الحالية أو الحضانات.

٣-٤ جنة الأطفال:

ويا ليتها تحقق نصيبا من هذا الاسم الجديد، فكلنا يعرف كيف تجري الأمور في روضات أطفالنا، وحرام أن نسميها هكذا فلا روضة فيها ولا شيء وإنما هي محابس يتجمع فيها الصغار ليشغلوا وقتهم فيما لا يفيد بينما ينسحق الوالدان في العمل من اجل كسب الرزق.

ونعتقد انه أن الأوان أن تعطى الأولوية المطلقة لجنات الأطفال فتمول من المال العام وتعطى أولوية مطلقة على كل مراحل التعليم التالية عليها. نحتاج إلى روضات بالفعل يتوفر فيها بيئات يحيى فيها الأطفال أحلى أيام عمرهم، ويحققون بفضلها كل ما يحبون وكل ما يسعدهم وينمي مداركهم ويفتح أعينهم وآذانهم على الحياة الجميلة.

واخطر ما تتعرض له مؤسسات رعاية الأطفال في الوقت الحاضر هو تحولها إلى أشبه شيء بالمدارس، حيث يمضي الأطفال أوقاتهم في تعلم حروف الهجاء والتدرب على أساسيات الكتابة ومبادئ العد إلى غير ذلك من الشواغل التافهة التي تسخر صغارنا وتضحي بنموهم الحقيق لصالح أهداف تافهة وضيقة وهي أن يجيبوا على متطلبات المدرسة الابتدائية فيما بعد. نحن نضحي الآن بطفولة صغارنا ونهمل تماما تنمية كل مكونات ذواتهم الأساسية حيث ينحصر كل الاهتمام في تنمية المهارات اللفظية المرتبطة بالقراءة والكتابة والعد وأيضا تنمية الذاكرة الحافظة أما ما بقي من مكونات فلا أحد يشغل باله به.

مشوار طويل ينتظرنا كي نرسخ المفاهيم الجديدة التي تجعل من تربيتنا جهدا مسئولا عن صناعة أطفالنا وبناء أجيال قادرة قوية البنية سليمة التفكير متمكنة من ذواتها وقادرة على الإبداع.

٣-٥ تناغم الأدوار:

واخطر ما يتعرض له بناء أطفالنا اليوم هو ما نشاهده من تضارب بل وأحيان من تعارض فيما تقدم عليه مختلف الأطراف التي تسهم في هذا البناء. واليوم لا تنفرد المدرسة أو الأسرة بالدور الرئيسي في صناعة أبنائنا وإنما تشارك أطراف عديدة يأتي في مقدمتها التليفزيون والسينما والمسرح ودور العبادة والأندية إلى غير ذلك من مؤسسات المجتمع الحديث الذي يطلق عليه البعض المجتمع المربي.

والمشكلة الرئيسة التي تفسد صناعة أطفالنا، تتمثل في تبني كل طرف من هذه الأطراف قيما خاصة به ربما تناقضت فيما بينها والأخطر من ذلك أنها ربما تتناقض مع المنظومات القيمية للأطراف الأخرى ومن ثم يكون التمزق والاضطراب والتخبط في سلوك أبنائنا. ولعل المؤشرات الدالة على فساد ما يتم من بناء لأجيالنا، هي من الكثرة حتى ليتعذر علينا أن نتحدث عن بعضها دون البعض الأخر. لكننا في إطار ورقة كهذه لا مفر لنا من أن نلمح إلى بعض هذه المؤشرات: الانخراط في الجماعات الدينية المتطرفة، تعاطي المخدرات، إهمال القيم النبيلة وشيوع القيم السوقية، وغير ذلك من المؤشرات التي تفصح بجلاء عن التباين في مضامين التربية التي تمارسها الأطراف العديدة التي تسهم بأقدار متفاوتة في عملية بناء أطفالنا وشبابنا.

نحتاج أن تتدعم الذهنية الجديدة فتتحول إلى قناعة تصدر عنها الأطراف المشاركة في بناء الإنسان. ولكي يتم ذلك لابد أن تكون لنا فلسفة واضحة المعالم ومعلنة لما نريد تحقيقه من بناء لأطفالنا، ومفسحة عن السمات التي نود أن نصوغها في ذواتهم، وكذلك موضحة لمنظومة القيم التي نرى فيها أساسا لنهضة امتنا. هذه الفلسفة لابد أن تلتزم بها كل الأطراف المعنية بصناعة أطفالنا، ولا يكون ذلك إلا بأن يكون لهذه الأطراف دور حقيق في بناء هذه الفلسفة وأيضا في عملية إعادة النظر فيها لتجديدها.

٣-٦ اتساق القول والفعل:

من أهم مقومات منهج بناء أطفالنا بناءا صحيحا، أن يتفق فعل البالغين الذين يخالطوهم وأقوالهم التي تصدر عنهم. الطفل حساس ويدرك بعمق التباين بين ما يقال على ألسنة الكبار وما يمارسونه بالفعل.

وما يستقر في وجدان الصغار هو ما يأتيه الكبار من فعل وليس ما يصدر عنهم من كلام. ومعنى ذلك أن الكبار مطالبون بان يقدموا لأطفالنا القدوة الحسنة التي تجعلهم يتشربون القيم دون عناء وتجعلهم يأتون السلوك القويم تلقائيا. ولابد للبالغين أن يكونوا على وعي بنفاذ بصيرة الصغار التي تستطيع أن تقرأ حتى صمت الكبار.

ـ المراجع ـ

١- ستيفن روز. علم الأحياء والايدولوجيا والطبيعة البشرية والتربية. عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٠م.

٢- عبد الفتاح تركي. المدرسة وبناء الإنسان، الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٣.

٣- عبد الفتاح تركي. الوجه الأخر للمفاهيم الوافدة، التربية المعاصرة، رابطة التربية الحديثة، العدد الأول، ١٩٨٤.

٤- _____. ،تربية ما بعد الحداثة. المحروسة، القاهرة، ٢٠٠١.

٥- _____، فلسفة التربية مؤتلف علمي نقدي. مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٣.

٦- _____. أطفالنا بين الحتمية البيولوجية والحتمية الثقافية. مؤتمر مركز رعاية وتنمية الطفولة - جامعة المنصورة ٢٠٠٤.

7- Craft, A. (2002) . Creativity and Early Years education. A life wide Foundation. London: Continuum studies in lifelong learning.

8- Tort, m. (1974). Le Quotient Intllectuel, Q.I., Maspero, Pairs.